المحاضرة السابعة: مدينة القيروان.

2 – المدن بالمغرب الإسلامي:

شهد المغرب الإسلامي حراكا عمرانيا كبيرا منذ بداية عملية الفتح الإسلامي، ثم في عصر الدويلات الإسلامية الناشئة به، وكانت كل دولة تسعى لبناء عاصمة لها تميزها عن بقية الإمارات و الدول التي سبقتها كما استفادت من المدن الأصيلة أو قرى صغيرة فمصرتها وتوسعا عمرانها ومن أبرز هذه المدن نجد مدينة القيروان بالمغرب الأدنى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط، ومدينة فاس بالمغرب الأقصى، حيث عرفت تطورا كبيرا عبر جميع الفترات التاريخية التي مر المغرب الإسلامي بها، فعرفت تأثيرات كبيرة في فن تخطيط المدن و في الأنماط البنائية منها المشرقية و منها الأندلسية لتمهد لنشأة نموذجا جديدا عرف بالفن المغربي أو الفن المغربي الأندلسي. فكيف كانت نشأة هده المدن وتطور عمرانها عبر الفترات التاريخية التي مرت بها؟.

– مدينة القيروان:

اتخذ المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامي للمغرب مدينة برقة كقاعدة عسكرية لجيوشهم ومنطلق نحو فتح المدن والقرى ونشر الإسلام بين القبائل البدوية، وذلك منذ عصر عمرو بن العاص رضي الله عنه والي مصر، حيث فتحت برقة سنة (22هـ/ 642م)، وصالح أهلها، وبقيت دار الإمارة لكل قادة الجيش الإسلامي إلى غاية عهد عقبة بن نافع الفهري رحمه الله.

تمكن عقبة بن نافع من غزو إفريقية وافتتح الكثير من حصونها، وأثخن في قتل البيزنطيين والبربر، واختط مدينة القيروان ذلك سنة (50هـ / 670م).

وتذكر المصادر التاريخية أنّه في سنة (55هـ / 674م) قدم إلى إفريقية أبو المهاجر دينار خرب ما كان اختطه وبناه عقبة بن نافع بالقيروان.

وفي عهد يزيد بن معاوية عاد عقبة إلى إفريقية بعشرة ألاف فارس، وكان ذلك سنة (62هـ/ 681م) وبدأ عمله من حيث تركه، فبدأ في تعمير القيروان، وأعادها إلى سابق عهدها، و جعلها موطنا ومقرا للمسلمين، فجدد البناء، و نقل الناس إليها، فعمرت و عظم شأنها، واختط مسجدها الجامع ونصب قبلته، حيث أصبحت تقليدا

لمساجد المغرب الإسلامي،كان هدفه من هذا البناء أن يستقر بها المسلمون، إذ كان يخشى إن رجع المسلمون عن أهل إفريقية أن يعودوا إلى دينهم.

بعد استشهاد عقبة بن نافع رحمه الله عين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان زهير بن قيس البلوي لاسترداد القيروان فكان له ذلك، ففي سنة (69هـ/688م) سار نحو إفريقية (كان مرابطا بمدينة برقة)، ونزعها من أمير البربر كسيلة، وقضى عليه في موقعة ممس، ولكنه لم يرغب بالمقام بالقيروان وعاد إلى برقة واستشهد هناك رحمه الله في حربه ضد الروم.

يبدو أنّ هذا الانهزام لم يؤثر على مدينة القيروان ولم يطلها الخراب والتدمير، حيث تشير المصادر التاريخية أنّ حسان بن نعمان عند قدومه إلى إفريقية دخل مدينة القيروان وسأل أهلها عن أعظم الملوك بإفريقية قدرا قالوا: "صاحب قرطاجة دار ملك إفريقية"، وهذا ما يدل أن المدينة لم تتعرض للخراب من طرف البربر والبيزنطيين، بعد استشهاد زهير بن قيس بل كانت موطنا لقبائل بربرية وبعض العرب المسلمين. ورغم انهزام حسان بن نعمان ضد جيش الكاهنة بقيت القيروان قائمة إلى غاية عودة الجيش الإسلامي من جديد بقيادة حسان بن نعمان وأعاد فتح إفريقية وقتلت الكاهنة، ودخل إلى القيروان، وقام بتجديد بناء مسجدها الجامع، وأحسن بناءه، وأقام بالمدينة وأصبحت مقر ولاية إفريقية يوجه منها شؤونها ويدير أحوالها، وقد عمرها المسلمون وأطمأنوا إلى أهلها. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل عقبة بن نافع ومن جاء من بعده وفقوا في اختيار موقع المدينة؟

– موقع المدينة:

يبدو أنّ السبب الرئيسي لبناء مدينة القيروان مند عهد عقبة بن نافع هو تبليغ الدعوة الإسلامية، أي لهدف ديني ولهدف عسكري حربي، وهذا ما جعلها في موقعها قريبة من البربر بعيدة عن البيزنطيين الذين تحكموا في ساحل افريقية.

هذا ما نستطيع أن نفهمه من تلك المناقشة التي حدث بها المؤرخون عما دار بين عقبة بن نافع رضي الله عنه وأصحابه في اختيار مكان القيروان وموضعها بالنسبة للروم والبربر، وما قام به من ارتياد الأماكن حتى توصل إلى اختيار المكان المحقق لأهدافها، وعبر المالكي، وكذلك ابن عذارى بقولهما: " فقال له بعض أصحابه: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين. فقال لهم: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه غزاة البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل فيخرج فيقيم في غارته إلى نصف النهار فلا يدركها منه غارة أبدا فإن كان بينهما وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم وهم عسكر معقود إلى أخر الدهر وميتهم في الجنة، فاتفق رأيهم عل ذلك...".

ومن هذا تتجلى لنا الأسباب و العوامل التي جعلت القيروان تبعد عن البحر، وهذا ما عبر عنه النويري وأجمع عليه العديد من المؤرخون عن أثر قرب القيروان من البربر في الداخل مما أدى إلى انقياد كثير منهم للإسلام أيتها الحيات والسباع نحن أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا إنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر النّاس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراءها، والحيات تحمل أولادها، فأسلم كثير من البربر"، ويؤكد ياقوت الحموي ذلك بقوله: "..فحمل ذلك كثيرا من البربر على الإسلام...".

كما روعي في اختيار موقعها سهولة إمدادات الجيش من ناحية الدواب التي تحمله آنذاك، وهذا ما عبر عنه عقبة بن نافع عند مخاطبة أصحابه: " قربوها من السبخة. فقالوا: نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرها في الصيف. فقال: لا بد لي من ذلك لأن أكثر دوابكم الإبل وهي التي تحمل عسكرنا والبربر قد أتنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرنا لم يكن لنا بدا من المغازي والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى. فأجابوه إلى ذلك فمال إلى موضع بناء المدينة على ساحل واديها."

يشير المقدسي أن موقع مدينة القيروان لا يتوفر فيه الماء وهو من الأمور الضرورية التي يجب توفرها لإنشاء المدن، و قد تغلب على ذلك فيما بعد عند اتساع عمرانها بإنشاء المواجل لخزن المياه، و يقول في ذلك الحميري: "... وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء هي سقايا لأهل القيروان، منها ما بني في أيام هشام بن عبد الملك، وفي أيام غيره من الخلفاء، وأعظمها شأنا وأفخمها منصبا الماجل الذب بناه أحمد بن الأغلب بباب تونس من القيروان..."، ويبدو أن قلة الماء في القيروان كان بالنسبة لماء الشرب، أما الماء اللازم للاستعمال فقد أنشئت الآبار للحصول عليه كبئر أم عياض، وبئر روطة.

يبدو أنّ المسلمين لم يراعوا في مدنهم الأولى الشروط الأساسية في تأسيس المدن، لانشغالهم بعملية الفتح، ونشر تعاليم الدين الإسلامي، ويعلل ذلك ابن خلدون بقوله: "... وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا المراعي، والقرب من القفر ومسالك الظعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن...".

ومما ذكرناه يبدوا الأثر واضحا لتأثير اختيار مكان القيروان في تحقيق أهدافها، وهو أن تكون موطنا لنشر الدعوة الإسلامية، من حيث قربها من مضارب البربر، وتأمين إمدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهي الإبل، والبعد عن الساحل حتى لا تتعرض لأساطيل البيزنطيين.

– تخطيط المدينة وعمرانها:

بعد أن استقر رأي عقبة ومن معه على بناء القيروان واختيار مكانها شرع في تمهيد مكانها للبناء، وإزالة الأشجار الموجودة فيها حتى يبدأ في تخطيطها، وإقامة المباني التي يريد بناءها، ويحدد شوارعها وعمارتها، وأهم شيء

في ذلك هو ما يحقق الهدف من قيامها وهو المسجد الجامع ودار الإمارة، وبعد ذلك المساكن التي سيقيم فيها الجنود وأسرهم، وقد تم ذلك بالمواد المحلية. ويذكر ابن الأثير مساحة مدينة القيروان وتاريخ إتمام بنائها بقوله: "...دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس."

عندما انتهى عقبة من بناء القيروان فوجئ بعزله، وأسند الأمر إلى أبي المهاجر دينار الذي لم ينزل في قيروان عقبة، وقام تشيد مدينة تبعد حوالي ميلين من مدينة القيروان، ثم أسند أمر إفريقية إلى عقبة بن نافع للمرة الثانية، فقدمها وجدد بناءها، ونقل الناس إليها وذلك سنة (62هـ /681م)، و يقول المالكي في ذلك: "..قدم عقبة إلى القيروان بعشرة آلاف فارس....وجدد بناء القيروان وشيدها ونقل النّاس إليها فعمرت وعظم شأنها".

وعندما تمكن حسان بن نعمان من القضاء على مقاومة البربر والبيزنطيين وبسط سلطان المسلمين على إفريقية، شرع في إعادة بناء مسجد عقبة بن نافع، فبناه بناء حسنا وجدده وذلك سنة (84هـ/ 703م)، ويقول ابن الآبار في ذلك: " هدمه (أي المسجد) حاشا المحراب وبناه بالطوب".

توالت بعد ذلك الحركة العمرانية على القيروان وتعددت وتنوعت حسب حاجة المدينة ونموها وكثرة سكانها وسعة سلطان حكمها، فما هي أهم المنشآت العمرانية التي شيدت عبر أهم الفترات التاريخية التي مرت بها؟

– العمارة الدينية:

لقد أبتدئ في بناء مدينة القيروان ببناء المسجد الجامع على عهد عقبة بن نافع، لذاك كثرت بها المساجد إلى أن بلغت زهاء ثلاثمائة مسجد يعبد فيه الله، ولا جرم أن أعظمها وأشهرها هو المسجد الجامع الذي أسسه عقبة بن نافع عند تخطيطه للمدينة. والذي بدل كثير من الولاة والأمراء جهودا كبيرة لتجديده وتحسينه بحيث أصبح معلما حضاريا ومصدرا هاما اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية الدينية تخطيطها وعناصرها الزخرفية والمعمارية، ومنه انبثقت الأفكار المعمارية والفنية والزخرفية التي تطورت في العصور التالية، كما كان هذا المسجد ميدانا للحلقات الدينية والعلمية واللغوية التي ضمت نخبة من أكبر علماء المغرب الوسيط، ومركزا عبوريا هاما نحو المشرق الإسلامي.

ويصف الدكتور السيد عبد العزيز سالم تخطيط جامع القيروان بقوله: "...من أكبر المساجد الجامع الباقية في الإسلام وأعظمها مظهرا ...". و يبدو أنّ النظام المعماري الذي اتخذه المسجد الجامع في إصلاح بشر بن صفوان في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة (105هـ/ 723م) ظلت صورته التخطيطية هي القائمة والمستديمة إلى يومنا هذا بالرغم من أعمال الترميم والإصلاح التي جرت فيه مع امتداد الزمن وتعاقب الأيام من العهد الأغلبي (184-296هـ / 800-908م) إلى العهد الفاطمي (296-361هـ/ 908-971م)، ثم العهد الزيري (361-554هـ/ 971-1159م) ، والحفصي و العهد العثماني.

ويصف الدكتور عبد العزيز لعرج" النظام التخطيطي للمسجد الجامع بقولة: " ويتكون ذلك النظام من مستطيل أضلاعه غير متساوية، وعرض حائط قبلته 77م، والمقابل له 70.83م، وطوله 126م، ويتوسطه بهو فسيح مساحته حوالي 67م.56م، تكتنفه شرقا وغربا مجنبتان لكل منهما رواقان، وعرض الواحدة منهما حوالي6م، ويتصدره بيت الصلاة مساحته 70م عرضا × 37.70 عمقا، و يتكون من 17 بلاطة عمودية عرض الواحدة منها يتراوح بين 3.50م و 4.50م، وتمتد على 8 أساكيب باستثناء الأسكوب الموازي لحائط القبلة فعرضه يزيد عن 6م، أما البلاطة العمودية على المحراب فعرضها 5.5م، ويتصدر حائط القبلة محرابه بانحراف 2.5م عن منتصفه، ويرتسم في دائرة قطرها حوالي 2م" ولبيت الصلاة بابان متقابلان أحدهما مفتوح في حائط الشرقي والآخر في الحائط الغربي وكلاهما عند نهايتي الأسكوب الخامس، وللمسجد كذلك خمسة أبواب أخرى ينفذ من ثلاثة منها إلى المجنبة الغربية ومن الآخرين إلى المجنبة الشرقية، وتقوم المئذنة في منتصف ضلع المستطيل الشمالي، ولكنها لا تقع بالضبط في محوره، وهي عبارة عن مربع طول كل ضلع منه عشرة أمتار ونصف، ويختلف نظام المجنبة الشمالية التي فيها هذه المئذنة عن نظام المجنبات الثلاثة الأخرى إذ أنّه قد استعيض عن كثير من أساكبها بغرف ومنافع، وعموما المئذنة من ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة، والطابق الأدنى مربع القاعدة تنحدر جدرانه إلى الداخل انحدارا خفيفا فيقل عرضه كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة القوة وارتكازا وثباتا، وقد اتخذت هذه المئذنة نموذجا للمآذن المصرية مثل مئذنة مسجد الجيوشي، ومئذنة مدرسة قلاوون وقبتها، كما أصبحت مئذنة مسجد جامع القيروان تؤلف طابع مغربيا بحتا، إن مآذن مساجد الإسلام الأولى قد اندثرت وظلت مئذنة القيروان قائمة فهي أقدم المآذن الإسلامية.

يعد هذا التخطيط المعماري لجامع القيروان أقدم تخطيط في مساجد المغرب الإسلامي، كما يعد المصدر المعماري الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية الأندلسية نظامها وعناصرها، ومنه انبثقت الأفكار المعمارية والفنية والزخرفية التي تطورت عبر العصور.

ولا شك أن جامع القيروان استمد كيانه المعماري والتخطيطي من المساجد المبكرة التي بنيت قبله في فترة الفتوحات وعهد الدولة الأموية كجامعي الكوفة والبصرة، والجامع الأموي بدمشق، وكلها تتشابه في تخطيطها العام مع تخطيط جامع القيروان، وقد انحدرت هي بدورها من أول مسجد بني في الإسلام هو مسجد المدينة، أو المسجد النبوي بالمدينة، وهو النموذج الأول الأصيل التي اشتقت منه بقية المساجد التي أتت بعده كيانها المعماري، ونظامها التخطيطي.

تعتبر الفترة الأموية أهم مرحلة مر بها المسجد الجامع بالقيروان، حيث في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك"أمر بزيادة مساحته، وأضاف إليه حديقة كبيرة في شماله، وجعل له صهريجا للمياه، وشيد مآذنه. وفي عام (155هـ /

724 م) أعيد بناؤه على يد يزيد بن حاتم، وظل على حاله هذه إلى أن تولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية سنة (201هـ / 817 م) فزاد فيه.

ولقد سارت التوسعات في العصور المختلفة التالية، ويقدم البكري وصف شيق، ودقيق للعمارات والزيادات التي حدثت في المسجد مع ذكر من قام بها وتاريخها فيقول: " إنّ أوّل من وضع محرابه وبناه عقبة بن نافع ثم هدمه حسان حاشا المحراب وبناه، وحول إليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلها من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب ويقولون أن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيها قبل نقلها إلى الجامع زنتهما ذهبا فابتدعوا الجامع بهما. فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها، وأن يدخلها المسجد الجامع ففعل وبنى في صحنه ماجلا، وهو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات وبنى الصومعة في بئر الجنان ونصب أساسها على الماء واتفق أن وقعت في نفس الحائط الجوفي، وأهل الورع يكرهون الصلاة في هذه الزيادة ويقولون أنّه أكره أهل الجنة على بيعها، والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون، ولها بابان شرقي وغربي وعضايد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما، فلما ولي إفريقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين و مائة هدم الجامع كله حاشا المحراب وبناه و اشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه وهو الذي كان يصلي عليه القاضي أبو العباس عبدون. فلما ولي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب هدم الجامع كله وأراد هدم المحراب فقيل له أن من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع، ومن كان معه فلج في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر غيره حتى قال له بعض البناة أنا أدخله بين حايطين ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك فاستوصب ذلك وفعله، فهو على بنائه إلى اليوم والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله مخرم منقوش كله، منه كتابة تقرأ ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام في غاية الحسن والعمودان الأحمران المذكوران يقابلا المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب وعدد ما في الجامع من الأعمدة أربعة مائة وأربعة عشر عمودا، وبلاطاته سبعة عشر بلاطا. وطوله مائتان وعشرون ذراعا وعرضه مائة وخمسون ذراعا وكانت فيه مقصورة فلم يزل بناء زيادة الله فيه والمقصورة اليوم إنما هي دار بقبلي الجامع بابها في رحبة الثمر، لها باب عند المنبر يدخل منه الإمام بعد أن ينزل في هذه الدار حتى تقرب الصلاة. وبلغت النفقة في بنيانه ستة وثمانين ألف مثقال.

ولما ولي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (184هـ-196هـ/ 800م – 812م) زاد طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب وفي دورها اثنان وثلاثون سارية من بديع الرخام وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه وقد فرش من الصحن بين أيدي البلاطات

نحو خمسة عشر ذراعا وللجامع عشرة أبواب ومقصورة النساء في شرقيها بينها وبين الجامع حائط مخرم محكم العمل."

وفي مدينة القيروان وما حولها مساجد متعددة منها: مسجد الأنصاري بمحرس الأنصار وعليه بني هذا المحرس، ولم يزل الصلحاء والأبدال يتناوبونه ويعمرونه وله بركات مشهورة، ومسجد الزيتونة بمحرس الأنصار أيضا، وهو مسجد كبير جليل في وسطه ماجل مستطيل بنى هذا المسجد سنة ثلاث وتسعين بناه إسماعيل بن عبيد الأنصاري وبهذا المسجد كان أهل القيروان يجمعون إذا كان بجامع عقبة بناء، ومسجد أبي ميسرة بناه بعض التابعين، وهو عن يسار الداخل من باب تونس أحد أبواب المدينة.

– العمارة المدنية:

بعد أن اختط عقبة بن نافع المسجد الجامع اختط دار الإمارة جنوب المسجد لتكون مقرا للولاة، ويقول في ذلك ياقوت الحموي: " ثم اختط دارا للإمارة، واختط النّاس حوله"، وقد استمرت دار الإمارة مقرا للولاة من قبل الأمويين والعباسيين إلى أن انتقل عنها إبراهيم بن الأغلب عند بناء القصر القديم (العباسية)، وقد اهتم حسان بن نعمان عندما استقر بإفريقية بالناحية الإدارية فدون الدواوين، وكان مقر الدواوين عند إنشائها مجاورا لدار الإمارة، كما كان بالمدينة دار لضرب السكة وتعديل الأوزان وضبطها، يضاف إلى ذلك دار الضيافة لاستقبال الرسل من الدول الأخرى.

ومن أجل توفير المياه اللازمة لمدينة القيروان قام الولاة والحكام بإنشاء المواجل داخل المدينة وخارجها، ويصف الحميري من علماء القرن التاسع للهجرة الرابع عشر للميلاد مدينة القيروان، وأهم المنشآت بها على غرار المواجل بقوله: " هي قاعدة البلاد الإفريقية وأمّ مدائنها، كانت أعظم مدن المغرب نظرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، وأربحها تجارة، أكثرها جباية...فكان عقبة أوّل من اختط القيروان، وأقطع مساكنها ودورها للنّاس وبنا مسجدها...وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء هي سقايا لأهل القيروان، منها ما بني في أيام هشام بن عبد الملك، وفي أيام غيره من الخلفاء، وأعظمها شأنا وأفخمها منصبا الماجل الذب بناه إبراهيم بن الأغلب بباب تونس من القيروان...وبالجملة فمدينة القيروان باب ملك المغرب، ورأيت من الممالك والملوك والدول والفقهاء والصالحين ما لم يكن مثله في قطر من الأرض، محنت بالعرب والفتن وخلت من النّاس و ذهبت نظرها ومحاسنها...".

كما زودت المساجد بمواجل لتوفير المياه للوضوء، أو لمآرب أخرى تدخل في خدمة المساجد، منها ما ذكر البكري حين وصفه لمسجد الجامع بالقيروان " وبنى في صحنه ماجلا وهو معروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات"، كما ذكر "الدباغ" بعض المواجل عند حديثه عن المساجد العتيقة في القيروان منها ما بني في مسجد

الزيتونة حيث قال: "..... "مسجد الزيتونة" وهو مسجد كبير جليل في وسطه ماجل مستطيل، بني هذا المسجد سنة ثلاث وسبعين".

وقد كان سكان القيروان يستعملون جميع المياه الممكن الاستفادة منها، حيث استعملوا ماء وادي السراويل في قبلة المدينة، فيما يحتاجونه إليه من الماء في المنازل وليس للشرب لأنه كان مالحا. وفي سنة (180هـ/ 796م) حفر هرثمة بن أعين والي القيروان البئر المعروفة الآن باسم بئر روطة قريبا من سوق الأحد وذلك نتيجة لامتداد العمران في القيروان

ومن أجل النشاط التجاري والاقتصادي أنشأ بمدينة القيروان سوقا كبيرا يبدأ من المسجد الجامع إلى باب الربيع ومنه كذلك إلى باب تونس، ممّا يدل على أنّه قد روعي عند تخطيط عقبة للمدينة أهمية السوق والتجارة والصناعة، ويصف البكري هذا السوق بقوله: "كان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متصلا من القبلة إلى جوف وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث، ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل وكان سطحا متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك...".

وكان بمدينة القيروان إلى جانب هذا السوق الكبير المشتمل على جميع أنواع المتاجر والصناعات أسواق أخرى متخصصة الأغراض، كسوق الصيارفة، ويغلب الظن أنّها كانت معدة للعمليات المالية، وسوق الجوهريين، وسوق البركة يعرض فيه الرقيق والجواري، وسوق الأحد للمنسوجات الصوفية واتصلت به سوق الكتانين والسوق الغزل، كما وضعت أما باب تونس سوق السراجين وسوق البزازين، وسوق الدجاج، كما نسبت أسماء أبواب المسجد الجامع بالقيروان باسم الأماكن التي تفتح عليها لكثرة وجودها في ذلك المكان، منها باب السباغين، وباب سوق الخميس، وباب اللحامين.

ولقد حظيت القيروان كمدينة عاصمة للإقليم بالحمامات والبيمرستانات، ويدل كثرة الحمامات على التغلب على مشكلة الماء في المدينة، حيث يذكر البكري أنّه يوجد بالقيروان 48 حماما. ومن أهم البيمرستانات التي أنشأت بمدينة القيروان هو بيمارستان الدمنة كان ذا أقسام، وله نظام خاص به، كان ملجأ كبيرا للفقراء، ثم خصص في أيام دولة بني الأغلب (184هـ – 299هـ/ 800م – 909م) للمصابين والعجزة، فصار ينقسم إلى قسمين أحدهما للمجزومين ويعرف بدار الجزماء، والآخر مأوى للعمى الفقراء يعالجهم به أطباء ماهرون، وكان الأمراء من كل الدول يزورون هذا المعهد الخيري لا سيما في المواسم ويوزعون الحلويات على المقيمين به.

– العمارة العسكرية:

كان للأسوار والمحارس شأن مهم بالنسبة للدفاع عن المدن منذ الفترة القديمة، ويشير البلاذري إلى ما قام به محمد بن الأشعث(دخل القيروان سنة 144هـ/ 761م) في القيروان إشارة موجزة بقوله: " فرم مدينة القيروان

و مسجدها "، أما البكري فيتحدث عن ذلك بتفصيل يبين أنه أقام السور للمدينة وجعل فيه الأبواب وعليه المحارس: " للقيروان من القديم سبع محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها وكان للقيروان في القديم سور من طوب سعته عشرة أذرع بناه محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي سنة أربعة وأربعين ومائة وهو أول قائد دخل إفريقية للمسودة وكان في قبليه باب سوى الأربعة وهو بين القبلة والمغرب وبين القبلة والمشرق باب أبي ربيع في شرقيه باب عبد الله وباب نافع، وفي جوفيه باب تونس وفي غربيه باب أصرم، باب سلم...وللمدينة اليوم أربعة عشر باب منها المذكورة، وباب النخيل والباب الحديث وللفصيل بابان، وباب الطراز، وباب القلالين، وباب سحنون...". إنّ كثرة الأبواب تدل على اتساع عمران مدينة القيروان في القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد، ومثل هذا العدد من الأبواب لم تعرفها حسب علمي مدينة مشرقية ولا مغربية.

أدى الزحف الهلالي لمدينة القيروان بتخريب عمرانها وهجرة ساكنيها بسبب الفتن التي أحدثوها بالمدينة يقول في ذلك الحميري: "...محنت بالعرب والفتن وخلت من النّاس وذهبت نظرها ومحاسنها..."، وهذا ما يفسر حسب اعتقادنا تحامل عبد الرحمن بن خلدون قي مقدمته على العرب.

وفي الفترة الحفصية (625هـ -931هـ / 1228م – 1534م) ساءت الأحوال الاقتصادية كثيرا بمدينة القيروان بسبب الازدهار التي عرفته مدينة تونس، حيث أصبحت الحركة الاقتصادية نشيطة بها، و بالتالي أزدهر العمران بها على حساب بقية المدن و يصف لنا حسن الوزان القيروان في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد بقوله: " وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بالقيروان في فترة من تاريخها، حتى إن معظم فقهاء إفريقيا من المتخرجين منها، وبعد أن خرب الأعراب القيروان، أخذت في الوقت الحاضر تمتلئ بالسكان، لكن بكيفية بائسة، فليس فيها الآن إلا صناع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز. ويبيعونها ملابس جلدية في مدن نوميديا التي لا توجد بها الأقمشة الأوروبية...بالإضافة إلى أنّ ملك تونس يثقل كاهلهم بالضرائب..".